تجربة الغربة

إن الحديث عن الغربة لا يحتاج الى مقدمة ... انها الغربة وكفى ... ولكننا سنحتاج الى تعريف البعد الثالث للغربة النتيجة الموضوعية للتفاعل بين الغربة والإنسان ... الوحدة التي بدون اسم ... وحدة هي أقسى من وحدة الصخر في أعلى قمة الجبل ... انها ليست غربة عبد المعطي حجازي في (مدينة بلا قلب) ... غربة الريفي الذي طحنت أعصابه المرهفة حضارة المدينة ولكنها الفراغ النفسي الناشيء من الإحساس بالغربة في وطن آخر، شعور بالمأساة... بشكل أكثر حدة وأبعد عمقاً...

شعور الغربة تمزق نفس حاد ... صراع الانسان في أن يكون محباً ومحبوباً في بلاد لا تتعرى من أجل المحبة فقط ... في أن يكون قابلا ومقبولا بين أناس يقيسون سلوك الفرد بالمسطرة وعواطفه بالترمومتر ... أن يكون حصيلة مليون عاطفة ... تصب في ناصية نهر واحد ... فهو يخشى ان يفقد حنان كل فرد ... فيقول له المجتمع : انت جاهل أم مجنون ؟ فيصيبه الصداع النصفي وتسحقه الأفكار الاضطهادية ويعود في

يده قبضة ريح بعد أن غاص في اعماق الحضارة الضحلة ... فارتد الى طبيعته الأولى بصدمة نفسية جديدة قدمت له في طبق فضي .

تجربتي ليست غربة (كامو وكافكا) حيث تتجسّد استحالة النصر وتتجدد الرغبة في الرحيل الى جزر مجهولة ... بعيدة عن عيون الناس « كانت المدينة مومساً عجوزاً ذات وجه شاحب متعب لا يعرف الابتسام » .

إن الغربة لوحة تجسم قلقاً نفسياً يعيشه الفرد في اطـــار مأساوي مغلق في أبشع صور الظلام ... فالفرد في الغربة رقم في كتيبة مقاتلة تخرج في مهمة خطرة قـد لا تعود بعدها وقد تعود بعد ان فقدت معظم افرادها في حقل الألغام الذي زرعه العدو ... هذا العالم المعاصر ... الذي مسخ شخصية الفرد ... وانكب في معاملة الحديثة يشرح عواطفه بالعقل الالكتروني يزيد حواسه الخمس ... بحواس جديدة يستطيع بها ان ينسى القلق ويحارب التوتر ويضع اعصابه في ثلاجة لا تتأثر بحرارة الواقع المعاش .

ان الغربة تجسد المأساة بشكل مفجع ... واذا لم تضف جديداً لمأساة كل فرد داخل جدران عزلته النفسية فإنها تجعل الألوان صارخة والنتوءات بارزة في جسم حياتنا التي يحاول المجتمع أن يستعمل كل مهارة المساحيق الحديثة حتى توافق الصورة المزاج السياسي والوضع الاقتصادي والشرور الاجتماعية. وقد استجاب أكثر الناس لهذه العملية . عملية غسل المخ وآثروا أن يخضعوا للضرورة فانغمسوا في ملذات الحياة ... بصورة انتحارية تعاطوا المخدرات ومارسوا الجنس وعاشروا المومسات وأصيبوا بالمرض العصبي، أعلى مراحل الاستجابة الفورية للسباق الحضاري الذى لم ينطلق من حلبة واحدة ولم تحدد له ساعة صفر.

لقد أوشكت الغربة ان تدفعني في هذا الاتجاه ... ولكنني وقفت كشجرة الصنوبر أمام رياح عاتية تهب من كل الجهات . ودهنت جلدي بطبقة سميكة من جلد التماسيح المستورد من بلادنا وحقنت شرياني بجرعة المصل الواقي لجنون العصر حتى أصبح بيني وبين دخول الدير ومناسك العبادة خطوات ... فوقفت بالخارج ممسكاً بمسبحتي القديمة لإيماني الصميمي بأن ارضنا القديمة تتحول ... ونحن ندور كالشمس في فلك مرسوم

لنخرج في النهاية نحمل في أيدينا شهادة جديدة باجتيازنا مرحلة الخطورة .

ولكن لقد فتحت الغربة عيوني على اشياء كنت أتحسسها ولا أراها ولفرط ما آمنت بها ... كنت أزورها كالضريح ورفضت حمل مصباح علاء الدين خشية ان اكتشف ان الصنم الذي عبدته كان وهماً عالقاً في ذهني لا وجود له داخل الضريح المغلق ومفاتيحه في جيب العقيدة . وروضتني على – ممارسة التفتح الذهني ورياضة الأخـذ والعطاء وخلصتني من عنترية الفكر وديماجوجية العقيدة . فلم اعد ذلك الثور الاسباني الذي يهيج لمجرد رؤية اللون الأحمر ... واعطتني فرشاة جديدة ... وعلبة ألوان وقطعة قماش ابيض لأرسم نفسي امـــام مرآتها الصافية ... لأجد فرصة لقياس المسافة بين الأصل والصورة... وكانت النتيجة تحليلاً نفسياً دقيقاً لشخصيتي على درجة عالية من الذكاء ... أكثر عمقاً من النقد الذاتي الذي مارسناه سنوات طويلة ... وطويناه في ملفاتنا السرية لأنه لم يكن صورة مطابقة لتطلعاتنا الشخصية ... ورغباتنا المكبوتة ...